مجلة العلوم الإنسانية
ISSN 1112-9255
العدد السادس ديسمبر 2016

OEB Univ. Publish. Co.

قراءة في كتاب "جدل التنوير" لماكس هوركايمر وتيودور أدورنو.

Lire dans le livre (Dilectique des Lumière) Max Horkheimer et Theodor W.Adorno .

أ. عبد الله مصطفى، جامعة أم البواقي،الجزائر / أ . مختار غريب، جامعة البليدة 2، الجزائر

تاريخ التسليم:(2016/02/23)، تاريخ القبول:(2016/11/19)

ملخص :

إن العصر الحديث هو عصر العقل المستنير الذي يرفض الرجعية والتخلف ويدعو إلى التجديد والتطور خاصة بعد الظلمات التي شهدها العالم الأوربي لقرون من الزمن، نتيجة لاستبداد رجال الدين واستهزائهم بقدرة العقل، إلا أن فلاسفة الأنوار ثاروا على أسطورة الدين وكشفوا تلاعب رجاله فاتحين أبواب الأمل والرجاء أمام العقل الذي ينقلنا من مملكة الظلمة إلى مملكة الأنوار.إلا أن هذا العقل في إطار التقنية الأداتية قد خان التنوير ووقع في هوية زائفة لا تتنفس إلا الدماء ولا تقبل إلا السيطرة والاستغلال على كل شئ، أين تحول العقل إلى اللاعقل.الأمر الذي أدى بأعضاء معهد الدراسات الاجتماعية بفرانكفورت إلى الكشف عن التناقضات التي ساقنا إليها العقل في إطار العقلانية الأداتية وهو موضوع كتاب جدل التنوير.

الكلمات المفتاحية: كتاب "جدل التنوير" ماكس هوركايمر وتيودور أدورنو.

Le résumé:

L'ère moderne est l'ère de l'esprit éclairé qui rejette retard et demande pour le renouvellement et le développement, en particulier après l'obscurité que le monde européen a vu depuis des siècles, à la suite de la tyrannie du clergé et faire fi de la capacité de l'esprit, , mais Lumières que les philosophes se sont rebellés contre le mythe de la religion et de la manipulation révélé ses hommes conquérants portes espoir et de promesses en face de l'esprit qui nous amène du royaume des ténèbres dans le royaume des Lumières .Toutefois, cet état d'esprit dans la technique instrumentale peut Khan Lumières cadre et signé en fausse identité, ne pas respirer seul le sang et ne pas accepter que le contrôle et l'exploitation sur tout, où tourner l'esprit à non-raison qui a conduit les membres de l'Institut des études sociales de Francfort pour révéler les contradictions que nous avons pris à l'esprit dans le contexte de la rationalité instrumentale qui est l'objet de livre dialectique de la raison.

Mots clés : le livre (Dilectique des Lumière), Max Horkheimer et Theodor W.Adorno .

مقدمة:

إن سيادة المسيحية للعالم الغربي لحقب تاريخية لا تحدها عقود قد أورثت استبدادا وتعسفا مارسه رجال الدين على العامة، جعل مجرد التفكير فيه وفي الأسس التي يقوم عليها محل مساءلة عن مدى شرعيته ومشروعيته كنموذج للحياة الفاضلة والسعيدة، كيف لا وقد كرس رجاله التظليل ومارسوا التجهيل وأعلنوا العداء على كل من يخالفهم الرأي، فهل هذا ما جاءت من أجله المسيحية؟ هنا أصبح البحث عن البديل عن السلطة التي من حقها أن تمارس السلطان في وقت قد حاد فيه غرض الدين عن مساره لارتباطه بالمصالح والصفقات مما أدى إلى حروب مريرة لا تتلذذ إلا الدماء، وقد بشر بيكون وديكارت وكانط بعصر العقل المستنير الذي لا يخضع لأي سلطان خارجي، فهو سبيل الخلاص

وأفق التطور وملاذ السعادة هذا هو مبدأ التنوير الذي سماه ماكس فيبر بإزالة الطابع السحري والمقدس عن العالم، غير أن ما وقع تاريخيا هو العكس " تشهد نظريات التنوير على الجهد الميؤوس منه ليضع مكان الديانة الضعيفة حافزا عقليا يستمر في المجتمع "(هوركهايمرو أدورنو، 2006،ص.6). هذا التنوير الذي وقع في هوية خاطئة، وحاد عن المدلول الأصيل للكلمة بحيث أصبح تعبيرا عن العقلية العلمية وقد سادتها التقنية وأبهرتهاالآلة ونالت منها هالة التطور أمام المد الرأسمالي الذي شيّأ الإنسان وأنسن الأشياء، مما جعله موضوعا للمساءلة، وقد نصب نفسه قاضيا عدلا لمحاكمة الدين ومعاقبته على جرمه، ليحين دوره للمحاسبة على خيانته للتنوير بظهور الأنظمة الشمولية للحكم الدكتاتوري واتساع مساحة الفكر الوضعي المكرس للسيطرة " ... إلا أنه وفي خضم التطور التاريخي الذي عرفته المجتمعات الإنسانية والغربية على وجه الخصوص، سرعان ما تبين أن سيطرة الخطاب الوضعي وا يديولوجيته المهيمنة في الحقل العلمي والاجتماعي قد تطور في خضم ذلك إلى خطاب علمي أداتي أو ما يسميه هوركهايمر ب" العقلانية الأداتية " وهي عقلانية علمية وضعية كرست السيطرة الشاملة على الطبيعة وعلى الإنسان أيضا " (بومنير،2012، ص.1)

مما أدى إلى تراجع البشرية في خط لا تحدّه حدود، لذا انتقد واقع التنوير أين عبر عنه هيدغر بالسقوط في وقت أصبحت التقنية تسيطر على الإنسان، ووصف هوسرل الوضع بالأزمة في كتابه "أزمة العلوم الأوربية فكيف نظر الجيل الأول للمدرسة فرانكفورت إلى التنوير؟ وما هي المجالات التي انعكس عليها؟

– هذا ما لخصه كتاب " جدل التنوير " في صفحات نستشف منها نقدا راديكاليا لهذا العقل المنحرف " فلئنكن العقل قد صاغ في الماضي مُثل العدالة والحرية والديمقراطية، فان هذه المثل حل بها الفساد في ظل هيمنة البورجوازية التي أدت إلى تحلل حقيقي للعقل . ومن هنا بدت الحاجة إلى نظرية نقدية جدلية تستطيع أن تتعقل اغتراب العقل بالذات " (هوركهايمر وأدورنو،2006، ص.117-118)

لكنه ليس نقدا ابستومولوجيا بل نقدا للمجتمع والعلم والتقنية وللإنسان والأنظمة السياسية الشمولية بمنهج نفسي اجتماعي تاريخي في آن معا رابطا مفهوم التنوير بالأسطورة.

"جدل التنوير" قام بتأليفه كل من "ماكس هوركهايمر" و"تيودور أدورنو"من أبرز ممثلي النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت في جيلها الأول، سنة 1944 أي مع نهاية الحرب العالمية الثانية وما ميز هذه الفترة هو معايشتها اللاتحرر الذي فرضته الممارسات الدكتاتورية مع الحركة العسكرية في اليابان والفاشية في إيطاليا والنازية في ألمانيا، والشيوعية في الإتحاد السوفيتي، وما أدت إليه الحربين العالميتين الأولى والثانية من كوارث على مستوى الطبيعة أو على حساب الجنس البشري .

لقد عبر الكتاب عن التناقضات التي ترتبت عن مسايرة العقلانية الليبرالية، فكيف نظر العقل إلى التنوير؟ وهل بلغ التنوير مقصده في بلوغ السعادة ؟ أم عسى السعادة التي بشر بها قد انقلبت إلى شقاء وؤس ودمار؟ وكيف أصبح التنوير الذي كان هدفه في البداية تحقيق إنسانية الإنسان إلى بربرية جديدة ؟ وكيف لهذا العقل المحرر أن يتحول إلى أسطورة بعد إن حارب الخرافة؟

يعتبر هذا الكتاب كتابا مركزيا يعكس موقف المدرسة من التنوير الذي غلب عليه الطابع التشاؤمي الذي خلفه جو الحرب في إطار العقلانية الأداتية التي أصبح العقل فيها أداة للسيطرة، كما أن الأمل الذي كان معولا عليه في التغيير قد أدمج في لعبة الاستهلاك، فالروح الثورية لطبقة العمال الكادحة التي قادها كارل ماركس للتخلص من الاستغلال قد اندثرت وذهب ريحها، والسعادة التي وعد بها التنوير قد تحولت إلى غبن وشقاء في ظل الأنظمة الشمولية، لذلك ركز الكاتبان على جدل العقل والأسطورة ووصول النازية إلى الحكم والدمار الذي لحق العالم خاصة ألمانيا ومعاداة السامية .

ففي الفصل الأول نجد المؤلفان قد قاربا علاقة الأسطورة بالملحمة واعتبرا الأوديسة عبارة عن شهادة على جدل التنوير وتناولا كذلك كيفية اندماج الملحمة مع الأسطورة،و جعلوا العقل في تماه تام مع هذه الأخيرة أين تقمص دورها وقاد المجتمع إلى البربرية.

أما في الفصل الثاني فقد ركزا على العقل الذي يسعى إلى وضع كل شيء في منهج بهدف السيطرة على الطبيعة وقد اعتمدا على إسقاط شخصية البطل الأسطوري أوليس ومغامراته على مغامرة المتنورون البربرية، فإذا كان أوليس قد وجد نفسه مضطرا لمواجهة القوى الأسطورية التي أفقدته انسجامه مع الطبيعة فهذا حال المتنور الذيضاع في تحديد أولوياته، وإذا كان أوليس قد تجاوز الأسطورة وسعى إلى الاعتماد على ذاته في مواجهة الطبيعة وقواها مستعملا جملة من الأدوات التي صنعها بنفسه ليدرأ عن نفسه شر القوى الأسطورية فهذا حال العقلانية الأداتية، وإذا كان مرغما على قهر طبيعته الداخلية حتى عبور الجزيرة فهذا هو القمع الزائد والتخلي عن الحرية عند الإنسان المعاصر.

ثم انتقدا الأخلاق عند "كانط" و"نيتشه" لأن كلاهما يسعى إلى الاستقلال عن القوى الخارجية، محاولا تأكيد الذات باعتبارها الجزء الذي يفسر الكل والذي يعِد بالسيطرة على عالم الأشياء، وهذا ما أكده كانط

في ثورته الكوبيرنيكية أين جعل الموضوعات تدور حول الذات بدلا من دوران الذات حول الموضوع، ونيتشه في ففكرة الإنسان الأعلى الذي يصنع قيمه بنفسه ثائرا على كل القيم والاعتبارات الخارجية ساعيا إلى تكريس القوة والعنف لقد مجد نيتشه بشكل خبيث الأقوياء وجبروتهم..إن جرأة العرق النبيل، الجرأة المجنونة العبثية التي لا يمكن التكهن بمظاهرها، السمة غير المرئية وغير المعقولة لمشروعاتهم... اللامبالاتو احتقار الأمن والجسدو الحياة والرفاهية "

(بوتومور ،2004، ص. 13)

– وقد قدم أدورنو وهوركهايمر نقدا راديكاليا للتنوير وللأسس التي قام عليها في ظل النظام الليبرالي فهو يشير إلى تحرير الإنسان وجعله سيدا، وبهذا فقد قدما مساءلة للمتنورين حيث وعد التنوير ب" تحرير الناس من الخوف وجعلهم أسيادا أنفسهم، وهو الذي كان يهدف إلى تحرير العالم من السحر، بعد أن نصب نفسه لهدم الأساطو وتزويد المخيلة بسند المعرفة" هوركهايمر وأدورنو،2006، ص.123)، أي فك السحر عن العالم عن طريق العلم، فهما لا يعترضان على العلم والتقدم بل بالعكس يشيدان بهما، فلا سبيل للتقدم إلا بالعلم، فقد أزال الغطاء التعسفي عن العالم ولم يعد يعترف بأي ضغط خارجي، لكن ما ينتقداه هو المسار الذي آل إليه العلم، والتقدم الذي أصبح يمثله فقد أصبح التنوير عبارة عن أسطورة، لأن الأسطورة التي تفسر العالم هي ذاتها تنوير، لكن التنوير كفكر غير ناقد لذاته ومتعصب لأنه أصبح أسطورة هو الآخر، حيث تحول العقل إلى اللاعقل، لأن التنوير أصبح يلعب ما كانت تلعبه الأسطورة من قبل، وقد أصبح غير ناقد لذاته بل متعصب لها، بحيث تحول بهذا الحال إلى أسطورة وهذا التحول أنتح كارثة إنسانية مست علاقاته بالخارج ومع ذاته .

– فمع تشيؤ العقل أصبحت علاقات الإنسان مع الآخرين ومع ذاته علاقات مسعورة، أي أنه انتقل من سحر الطبيعة إلى سحر علاقات الإنسان، والذي كرس هذا التوجه هو الصناعة التي حولت روح الإنسان إلى شيء، وأصبحت قيمته تتحدد بوصفه شيئا أي ما يمكن أن نستفيد منه، والأدهى من هذا هو أن الناس عملوا على التأقلم مع هذه السلطة وهذا التأقلم كرس مبدأ استمراريتها وبهذا زال نور العقل " لقد صارت الرقة وكذلك الطيبة خطيئة، أما السيطرة والقهر فقد صارا فضيلة فكل الأشياء الجيدة كانت قديما أشياء سيئة وكل خطيئة أصيلة تحولت إلى فضيلة أصيلة "

(كانط، 2005، ص .85).

ويعمق الكتاب مغامرة التنوير من خلال شخصية البطل الأسطوري أوليس أين يربط هذه الأخيرة بالملحمة، حيث اعتبر الأوديسة عبارة عن شهادة عن جدل التنوير، ثم تناول كيفية اندماج الملحمة مع الأسطورة، حيث تمثل هذه الملحمة أوليس بين الأسطورةو الأنوار، أين نجد أن الذات لا تعارض المغامرة وا ٍنما تكتسب مركزها في هذا التعارض، أي أن أوليس يضيع في الطبيعة لكي يجد نفسه، بهذا يمكن

أن نقول أن هويته مرتبطة بالأسطورة فأوليس يمثل التنوير، والعقل التنويري الآن ليس إلا إنقاذا للذات عن طريق السيطرة على الطبيعة.

– يعرف كانط التنوير على أنه " خروج الإنسان من حالة القصور الذي هو مسؤول عنه، والذي يعني عجزه عن استعمال عقله دون إرشاد الغير، وأن المرء نفسه مسؤول عن حالة القصور هذه عندما يكون السبب في ذلك ليس نقصا في العقل بل نقصا في الحزم والشجاعة في استعماله دون إرشاد الغير، تجرأ على أن تعرف، كن جريئا في استعمال عقلك أنت، ذا شعار الأنوار" (بومنير،2010، ص.11)

يبدأ الكاتبان هذا بتقديم تعريف كانط للتنوير، انتقد الكتاب كانط في نظرية للمعرفة لأنه – حسبه – يتعالى على التجربة أمام مركزية الذات، كما أنه انتقده هو ونيتشه في مسألة الأخلاق فكلاهما يسعى إلى الاستقلال من القوى الخارجية و الرجوع إلى التشريع الذاتي، فالشفقة عند نيتشه لا تعبر إلا عن الضعف، وربطها بالفاشية الذين يرفضون الشفقة والتسامح السياسي مستعملين القوة، وأكد الكتاب أن العصر البرجوازي أرحم من الفاشية لأن الأول لم يصل إلى قتل الزوجات والأولاد، لكن في عصر الفاشية كانت إبادة جماعية لليهود وهذا ما تؤكده المحرقة فمعايشتهم اللاتحرر الذي فرضته الفاشية، أدى بهم إلى انتقاد ما توصل إليه هذا التنوير، هذا فضلا عن الدور الذي تلعبه المرأة بوصفها إغراء ليس إلاّ حالها حال الطبيعة التي انتهكت حرمتها واخترقت عذريتها في ظل الاستغلال الرأسمالي، غرضه بلوغ المتعة وتحقيق الربح فهي الأخرى أصبحت موضوعا للسيطرة .

فقد انتقدا التطور الصناعي والرأسمالية، والحضارة برمتها واعتبرا السينما والراديو وسيلتين لتكريس السيطرة والبزنسة، أما جانب الصناعة الثقافية فإن كل شيء أصبح مراقب ومحسوب، فالمواهب أصبحت في خدمة الصناعة والثقافة ولا يمر شيء إلى المستهلك إلا وقد تم التأكد من أنه في خدمة النظام، إن ما تنتجه الصناعة الثقافية من قيم أصبح يؤثر في الذهن الإنساني، وبهذا تم إنتاج الناس وفقا لنماذجهم، أما معيار قياس القيم وتحديدها خاضع لمقاييس أخرى فالفيلم مثلا قيمته تتمثل في جلب عدد من النجوم بحيث يتم إبهار المشاهد، واختلاف القيم هو في الحقيقة تعبير على اختلاف المصالح (مصالح المنتجين) وبهذا تم إقحام الفن في المسائل الإيديولوجية وهذا ما أدى إلى تشيئته، فالفن أصبح مسخرا ومسيرا وبمهارة ضمن دائرة الاستهلاك، وتعتبر السينما الوسيلة القوية في التأثير على الناس فهي التي تصنع مفهوم جديد للجمال، ومفهوم جديد للحياء وللحب وللرومانسية وهذا ما تكرسه الأفلام التي تروج لمنتجات الرأسماليين عبر نوافذ مغرية تشدّ الجماهير وتعبر عن نوع من التحضر الزائف، وبهذا أصبح الإنسان محاصرا جسدا وروحا.

كما أن الطبقة الدنيا في المجتمع على الرغم من بساطتها وفقرها وهدوئها فهي تبدو كالطبقة التي يهتم لها وبها الجميع باعتبارها الطبقة الغالبة في المجتمع، لكن من حيث العدد وليس من حيث القدرة أو

النفوذ لأنها طبقة بائسة محرومة، في حين أن الطبقة البرجوازية التي لا يهتم لأمرها لا تلقى نفس الأذية التي يتلقاها الفقراء المسحوقين بسبب بساطتهم فهم الموضوع الذي تقع عليه السيطرة .

فلا يمكن أن نتحدث عن كرامة إنسانية إلا إذا قورنت بالحيوان، هذا ما عرفه الإنسان منذ القديم وحتى العصر الحديث، ومع هذا فالسلوكيون لا يفرقون بينهم حيث أن كل منهما خاضع لاستجابات تقترن بمثيرات معينة ففي البداية كانت السيطرة على الحيوان باعتباره جسدا وحتى أقواها أصبحت تعاني من العقل، لتنتقل هذه السيطرة إلى البشر، فعلم النفس الإنساني والحيواني يهملان الجوهر ليهتمان بالأعراض حتى صار عالم الإنسان والحيوان خال من التعزية، وقد كان في الأساطير القديمة ما يسمى بتناسخ الأرواح التي تنتقل من الإنسان إلى الحيوان كعقاب، غير أن البطل يتحرر ويجد خلاصه بقوة سحرية ويبقى جوهره دائما قائما أما اليوم فقد زالت كل القوى المحررة .

فقد أصبحت حياة الأفراد لا تتحدد إلا بنقيضها الفناء، فقد فقدت كل انسجام وكل استمرارية وكل دلالة، فلم يبق للفرد أثر في الوجود بل أن أثاره هي مواضيع حقد له لأنه غير عقلاني يرفض الماضي ويبحث عما يمكنه استعماله في الحاضر، وهنا يكتب تاريخه ويصبح التعبير عن العواطف المرهفة والحزن لفراق الأحبة فقدان للسيطرة التي يفترض أن توجه إلى إنتاج أعمال مادية فمقاومة الطبيعة الخارجية امتدت إلى المجتمع عبر مقاومة الطبقات من خلال قسوة المشابهين لنا والسلاسة مع من هم أقوى منا والعدائية مع من هم أضعف منا، وبهذا يصبح معنى التطور مقترن بمبدأ الارتقاء في السلم التراتبي للسيطرة، وأصبحت الحضارة بيد الجلاد الذي يسير الحياة.

إن رمز العقل الذي نادى به فلاسفة التنوير هو رمز زائف، يرسل مجساته بخجل وحذر لفرض السيطرة، فكل سؤال لتفسير التناقض أو عبثا لمحاولة حله يخلف من ورائه ندبة قد تكون ظاهرة وقد تكون متخفية لتحمل في طياتها مرض خبيث يفتك بصاحبه كلما انتابته الرغبة في بلوغ الحقيقة فلا تفسير للتناقض إلا الخضوع وكل سؤال يحيل إلى المرض .

وكانت ولا تزال المرأة موضوعا للسيطرة منذ أفلاطون إلى المسيحية، فقد كان واجبها رعاية البيت وخدمة الرجل، أما اليوم بقدر ما منحت للمرأة حقوق عبرت عن حريتها وعن قدرتها في توجيه إمكانياتها فهي قد عر تها من عفتها وأصبحت أكثر خدمة لسيدها، حيث أصبحت وسيلة للإنتاج من خلال الإعلان الذي يعري جسدها ويفضح أنوثتها ويفقدها قيمتها ليبدي قيمة المستحضرات التجميلية، هذا ما انعكس على ثقافة الجمهور الذي رأى في جمال المرأة ملاذا للترويح عن الألم والقهر والسيطرة، وعلم المرأة بقيمة جسدها التي يصورها الإعلام في شكل قوة لا يمكن قهرها أمام غريزة الجماهير جعلها أكثر شراسة فقد غيرت من طبيعتها ومن ضعفها وهنا أصبح الفن الذي بطلاته شرسات عاجز عن تحقيق السعادة أمام هذا الألم والسيطرة واليأس.

أما عن معاداة السامية بالنسبة لأدورنو وهوركهايمر واغتيال وحرق اليهود فهو قائم على تبريرات مزعومة " هذا ويعود كتاب جدل التنوير إلى حقبة الأربعينات من القرن العشرين، وهي الفترة التي شهدت هجرة أغلبية مفكري مدرسة فرانكفورت إلى مختلف بلدان العالم وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية ...إثر صعود النازية ووصولها إلى سدة الحكم، والملاحقات التي تعرض لها الكثير من المثقفين والمفكرين خاصة من ذوي الأصول اليهودية " (هوركهايمر و أدورنو ،2006،ص.197)

حيث:

-1- يعتبر اليهود عند الفاشيين" المبدأ السلبي المطلق، وسعادة العالم إنما تقوم على استئصالهم" (هوركهايمر و أدورنو ،2006،ص.205)

فهم الشر المطلق لذا يجب تخليص الأرض منهم وا ٍبادتهم مثل الحشرات هذا وصف الفاشيين، الذي يعكس تعطشهم للسلطة اللامحدودة، فهم يدينون اليهود بإثمهم الخاص.

-2- إلصاق معاداة السامية كحركة قومية بالديمقراطيين الاشتراكيين انطلاقا من التسوية التي كانت ترضي العامة فقط لانتزاع الامتيازات من الملكيات اليهودية رغم أنه يصـّب في مصلحة الطبقات العليا الذين غنموا من ثروات اليهود، كما أنها لا تقدم للمجتمع شيئا غير غريزة الهدم والكراهية والعداء للسامية يبرر بضعف المردودية فمعاداة السامية كان نافعا للزمر التي أرادت السيطرة، فالذين يقتلون اليهود ويكرهونهم ولا يحبون من يطيعهم بحجة الخلاص للإنسانية والوطن، فالجانب العقلي أصبح مطموسا والضلال يغذي كل شيء.

أعطت الليبرالية اليهود والعامة التملك وليس السلطة إعلانا لحقوق الإنسان لتحقيق السعادة والحد من غيران الشعوب المخدوعة أدركت أن هذه الأماني ستظل كذبة فازداد غضبهم لشعورهم بالإهانة والذين بيدهم السلطة يرون أنها لا سعادة إلا بها.

-3- معاداة السامية البورجوازية التي قامت على أساس اقتصادي خالص، بعد إعلان الحكام أن العمل يحط من قيمة الإنسانفإنهم قد تحو ّلوا إلى أرباب عمل كبار بالموازاة مع حكمهم، فالإنتاج أصبح له أربابه وأعطوا قيمة للعمل تعكس قيمتهم، فغيروا من قيمته ليتمكنوا من فرض رقابتهم العقلانية على عمل الآخرين وينسبون الإنتاج إلى أنفسهم.

- أما عن الإنتاج بالنسبة للعمال فليس لديهم منه أي حظ سوى الأجور الزهيدة التي يتقاضوها مقابله، ولما كان اليهود من الذين يتبادلون المنتجات كانوا هدفا توجه له الكراهية في كل الأوقات، لذا كان على اليهود ليلقوا القليل من الرضا أن يخضعوا لموجة التنصير وا ٍعلان ولائهم للنصارى وطعنهم لليهود، ورغم نجاح اليهود المتنصرين غير أنهم لم يصبحوا أعضاء حقيقيون في المجتمع الأوروبي، خاصة" أنهم أصبحوا شوكة في أعين الفلاحين والحرفيين" (هوركهايمر وأدورنو ،2006،ص.207)

في ظل الرأسمالية مما ولّد زيادة احتقار اليهود لأنفسهم لا لشيء سوى لجذورهم وعرقهم اليهوديحتى وا ن كانت المسيحية تكرس مبادئ التسامح خاصة في فرنسا إلا أنها لم تفعل شيئا حيال الأعمال اللاإنسانية التي مورست ضد اليهود.

انطلاقا من الإيمان المتعصب للمسيحية الذي يظهر في شكل حنين للخلاص غير الخاضع للرقابة في شكل تمردي فاشي نازي قد غذى الكراهية لمن يخالفهم الدين، وكانت معاداة السامية تعبر عن هذه العصبية فسيادة الأنا المطلق بوصفه خالقا ومسيطرا مع الطبيعة أصبح مقبولا بالنسبة للفكر وسيطرته، أصبحت كلية حتى السلطة المفارقة (الله) فأصبح " الله الخاص باليهودية يفرض ما يتوجب وينظم حسابات من لا ينفذون وعودهم أبدا، فهو يقيد خلقه في فخ الوقوع بالذنب والاستحقاق، أما المسيحية فقد ركزت على لحظة النعمة " (هوركهايمر وأدورنو،2006،ص.258).

ولا تقدم لليهودية إلا في اعتبار يسوع إلها، فهذا هو أصل الشقاء وليس الخلاص لذلك نادى رجال الدين بالمحافظة على عاداتهم وتقاليدهم وتدينهم لحماية مصالحهم عبر فكرة الخلاص والانعتاق غير أن الكثير من الفلاسفة ورجال الدين الذين عارضو طغيان الكنيسة على القيم الروحية بداية من باسكال إلى كيركغارد لذلك كانوا أكثر تسامحا. إن جواب معادي السامية هو نداء إلى الخصوصية التي انتقلت من الرقابة رقابة الذات لأعضائها التي لجأت إلى تلبية الحاجات البيولوجية من خلال التقنية في عالم الإنتاج البرجوازي، أين أصبح الحرمان كليا وخارجا عن سيطرة الوعي إلى اللاوعي من خلال اللمس والتعلق والإقناع هذه العناصر التي غيرت موقع العلاقات الإنسانية، حيث أصبح التأثير والسيطرة على المشتري بالخداع وعلى المدين بالتوسل، وعلى البائع بالتهديد فهذه اللعبة إذن التي تفرضها الخصوصية.

ففي الغرب تتحول الأفكار إلى نوع من السيطرة بل إلى سيطرة تامة، فالمسيحية مثلا اتخذت شكلا منظما، فهي مثلا تقوم على المساهمة في النشاط الاجتماعي وتطوير أنظمة موحدة بغرض تحقيق خلاص الروح، وبدأت هذه المرحلة مع "القديس بولس" فالفكرة التي تتجاوز الواقع وتسعى إلى الخلاص تتحول إلى ديانة وكل من عارض هذا الاعتقاد أصبح موضوعا للنقد، فالدين هنا كفكرة للخلاص أصبح أداة للسيطرة، وتحولت هذه السيطرة من سيطرة زهد إلى سيطرة مادة مع البرجوازيين كثمن للبقاء.إن الضمير الاجتماعي الكامن في كل واحد منا حين نمارس الظلم والكراهية التي نشعر بها تجاه العالم يحيلهما في الأوقات الحاسمة إلى أساليب تقضي على مصالحنا، فنحن نغذيه حتى وا ن كان وسيلة للسيطرة على ذواتها وهذا ما نجده عند البورجوازيين الفرنسيين الذين يتمتعون ببطولات الفاشيين وهم قدوتهم وهذا ما تجلى في صعود هتلر الذي فرحوا به حتى وهو يهددهم بالخراب. إن فولتير لم يكن عادلا اتجاه من لهم السلطة فقد واجه الطغيان بشكل مؤثر متباك ساخر وعنيف رغبة في تغيير السلطة غير أن السلطة البديلة لا تقدم الأمان الذي يفترض أن تحققه، فالحجج التي قدمها حملت في طياتها العناء لذا كانت هذه الحجج صحيحة تارة وخاطئة في الكثير من الأحيان، كما أن السلطة قادرة على تحقيق الأمان

والسعادة فهي المسؤولة، غير أنها القادرة على الظلم والاستبداد أيضا، فعقل فولتير بهذا أحادي الجانب تصور أنه بإمكان الشعب أن يمثلوا السلطة فهذا ما يجعلهم هدفا من خلال استبدالهم من قبل" أناس أكثر ضررا منهم – الكذبة تقول الحقيقة "

(هوركهايمر وأدورنو،2006،ص.266). فهم يعبرون عن أكاذيبهم التي تعبر عن الحقائق من خلال إعادة إنتاج الحياة التي منطلقها الحرية أما موضوعها فهو القمع.

وكل تغير في زماننا تغير نحو الأسوأ فالواقع السياسي والاجتماعي سيوضح هذا الانطباع، فالصفحات الأولى من الجرائد المكتوبة بحروف كبيرة فهي تعبر عن تهديد حقيقي للإنسان من خلال إعادة التسلح والتوتر في كل أنحاء العالم الأطلسي والمتوسطي، فأصبح الناس يعيشون قلقا حقيقيا حتى الحرب العالمية الأولى وبعد نهايتها لم يطرأ أي تغير بل شقاء أكبر من خلال الاستبداد الذي أخذ شكل العقلنة وتوقيف العمال وبنجاح النازية بدأ الانهيار الثلجي.

وفي الميدان الثقافي العزلة ليست عزلة مواصلات ذلك أن التقدم يفصل الناس عموديا لأنه يقضي على كل أشكال الاتصال والتواصل بين البشر بسبب شدة المراقبة التي يفرضها أرباب العمل على العمال في المصانع أو المكاتب مما يغلق الباب أمام أي حديث خاص لكي لا يضيّع الموظفين الوقت، وبهذا فالموظفون معزولون حتى وا ن عملوا جماعيا، كما أن السيارات الخاصة منعت كل تواصل بين البشر، كما أن الحديث من سيارة لأخرى ومن عائلة إلى عائلة حديثا تغلب عليه المصالح العملية، ليرى الناس عزلتهم من خلال التقائهم أيام العطل في المطاعم.

أما عن فلسفة التاريخ فإن وضعية الإنسان في التاريخ ليست سلبية كما يعتقد البعض فهو مؤثر فيه بما ينتجه وينظمه وبهذا فالناس لم يتجاوزوا من سبقوهم بل قضوا عليهم حيث أصبحت مقولات هيجل كالحرية والعدالة لا تشغل أي حيز في التاريخ فقد كانت مرحلية، أما في التاريخ المعاصر فالديانات والأنظمة السياسية ليست مهمة إلا بقدر ما يمكّن الإنسان من السيطرة على الطبيعة فالتخلص من جور الإقطاعية المطلقة قد تفتح على عهد الآلة التي لا ترحم التي أصبحت موضوع التقدير والاحترامو التنافس على حساب الجنس البشري .

وقد عرفت الفترة المعاصرة جملة من التناقضات نتجت كاستجابة من الفلاسفة لطلب تطوير نظام أخلاقي صارم يقتضي وجوب الخضوع للسلطة وتجميد الآلة بحجة التطور بدل التخلف والتنظيم بدل الفوضى، غير أن هذا النظام والتطور يتضمنان التناقص حيث تحول العقل إلى اللاعقل فأصبح الطبيب الذي يعالج من المرض سيدا على أرواح من يرون فيه الخلاص، والقضاة الذين يحمون المجتمع يمثلون الجلاد الذي يقضي على هوية الأفراد في السجون التي تتضمن الموت البطيء.

وفي ظل الحداثة تحول مفهوم الزمن ومفهوم الحياة حيث أصبح الكهول بين الأربعين والخمسين يمرون بتجربة غريبة فهم يلاحظون أن جميع الذين حافظوا على علاقاتهم بهم ونشؤا معهم يظهِرون

اضطرابات في سلوكهم، أما في القديم كانوا يمثلون النخبة المثقفة المعول عليها التي لها من الحكمة والوقار ما تضمن به السكينة، أما اليوم أصبحت تقبل دونية البالغين كما لو كان ذلك أمرا طبيعيا فكل تقدم في السن إلى الرشد يعني القدرة على بلوغ اللاعقل فقد زالت الحكمة والوقار والثبات ولتحل محله البلادة والطيش في ظل جدلية العقل .

ويعتبر مفهوم الجنوح في الفترة المعاصرة من معاني الحرمان من الحرية تحت ضغط المؤسسات البرجوازية، فالعنف والقسوة هي التي تعلم الناس المحبة لمن يمارسون القسوة والعنف فالحياة البرجوازية هي الألم. فالسجن الحديث يسوق إلى العزلة الجذرية والإحالة إلى العدم، هذا ما سعت إلى تكريسه البرجوازية للجانحين من خلال عقلنة الوجود في شكل إصلاحات بحجة حماية المجتمع وإصلاح الجانح وأي إصلاح هذا الذي يضع الجانح في مواجهة الجدران أمام الصمت الرهيب، أو أمام الجلاّد وأي جلاّد هذا الذي يتعامل مع الروح بغير روح ومع النفس بغير نفس ومع الإنسان بغير إنسانية، فهو يعمل على استئصال الروح من الجسد من خلال إيهام الجانح بالجنون .

فالمسجونون هم مرضى وسبب مرضهم هو ظروف حياتهم أو حفاظهم على بقائهم وهذا ما يعبر به الجميع إذا ما وضعوا في ظروف مماثلة، فالسجن مرض لا شفاء منه، فعلى خلاف أنظمة الحكم الملكية التي تعاقب الجسد فالجمهوريات البرجوازية تعاقب الروح التي قدر لها الموت البطيء فهم يتلاشون روحيا، غير أن الفاشية التي كرست الاحتكار جعلت من الأمم التي ضعف اقتصادها في حكم المعدومة ثقافيا وقانونيا، أين تتمثل في شكل جوهرة للمصنع الألماني ما يميزها عن المجرم سوى السلطة فالدولة الكلية لا تعترف بالإصلاح ولا حتى بالعقاب بل بالإبادة حيث تصبح الإصلاحية حلم آت من زمن جميل مضى.

– صرح الفيزيولوجي الفرنسي بيار فلورنس أن استعمال الكلوروفورم في العمليات الجراحية لا يعالج من المرض وإنما يفقد المسالك العصبية قدرتها على تسجيل الآثار الحسية التي يسببها الألم ويبقى هذا الأخير يصاحب المريض ولا يزول لكن دون أن يشعر به صاحبه . فإذا عرف المرضى هذه الحقيقة فلا أحد يجرؤ على طلب هذه العملية "وإذا قلنا الحقيقة لمرضانا فمن المحتمل أن لا يختار أي منهم هذا العلاج، في حين انه حاليا، وبسبب صمتنا، فهم يطالبون بت أحيانا بإلحاح" .

(بومنير، 2010، ص.27)

هذا ما نواجهه اليوم من عمى تجاه الألم من أجل العلم فالسيطرة الشاملة على الطبيعة والبشرية من خلال الثناء إنما تستمد قوتها من هذا العمى فهي غير ممكنة إلا من خلال النسيان، حيث أصبح كل شيء عبارة عن نسيان. لقد خُدِّر الجمهور ولم يعد مكترثا للألم ولا للجرح الذي ينزف وكل غرضه وهمّه هو إرضاء الآلة.

لقد أظهر النظام الفاشي الميول والرغبات والغرائز التي كانت دفينة والتي عرتها الحضارة فإن كانت المسيحية تبارك العمل فقد اعتبرت الجسد منطلقا لكل الرذائل، وبهذا كان العامل الذي يسخر قوته الجسدية في خدمة البرجوازية مَ وضوعا للسيطرة، وأصبح النصح بالعمل ضرب من السخرية وبهذا كان العامل يعاني الضغط من جراء إدانة جسده من قبل السلطة التي تمارس الضغط والظلم عليه كانعكاس للايدولوجيا الرأسمالية وبهذا أصبح الجسد يمثل الشر الأعلى والعقل الذي يسيره هو الخير الأعظم.

– فالحداثة كرست الحب والكراهية للجسد فهو مرفوض كما لو كان الجزء الأدنى عند الإنسان وهو في نفس الوقت موضوع الرغبة، فهو مغترب و متشيئ فقد فصلت الحضارة بين الروح والجسد من خلال التحقير الذي يمارسه الإنسان اتجاه جسده بعد أن كان مصدر السلطة والفخر عند اليونان وفي عهد الإقطاع فالقوة الجسدية هي التي كانت تسخر لهم السيطرة، أما اليوم أصبحت السيطرة للآلة التي تصنع السيف وليس لحامله. ضمن هذا السياق يصبح الإنسان نفسه مجرد جزء أو عنصر من الطبيعة فهو يخضع للتقنين والتنظيم والتوجيه مثل الطبيعة، ولهذا يمكننا القول لأنه أصبح مستوعبا في كلية النظام الطبيعي و الاجتماعي أيضا باعتباره شيئا ثابتا، " وبهذا يتم فرض المقولات الكمية على السلوك الإنساني وا خضاعه للقوانين الرياضية والقواعد القياسية حتى يتم التحكم فيه تحكما تاما وشاملا وفي هذه الحالة يكون فاقدا لحريته التي طالما أكد عليها الفلاسفة التنويريين (كانط هيوم...) (سبيلا، 2000، ص.65). فكانت الضغينة تجاه التقدم تزينا لثقافة الجمهور الصناعي فأعاد الفنانون الوحدة بين الجسد والروح الضائعة إلى إحالة مباشرة إلى الأفلام الإباحية أو تعرية الجسد في الإعلانات لترويج مساحيقهم تمجيدا لجمال الجسد الذي استغلته المؤسسات العملاقة.

فالجسد هنا دون روح فهو شيء، كما تحولت الطبيعة إلى مادة دون روح، فقد الجسد نبله وأضحى مجرد جثة يتهافت عليها القتلة الذين يستعملونهم لكل من يخالف مصالحهم.

– فكل من يستهويهم الجسد في ألمانيا ويحظى بالتمجيد من قبلهم من رياضيين وسحرة كانت لهم ميولهم في قتل الآخرين كما يميل محبي الطبيعة إلى الصيد حتى أصبحت الغابة في الانجليزية والفرنسية يطلق عليها اسم "BOIS" أو الخشب فهي الوسيلة وليست الغاية وهي الجسد الميت وليست الروح المفعمة بالحياة، فالطبيعة " لم تعد ذلك الديكور الجميل الذي يدخل البهجة في النفوس، بغض النظر عن فائدته، بل أصبحت علاقة الإنسان بالطبيعية علاقة نفعية استخدامية وسائليةو أداتية، حولت كل جمالات الطبيعة إلى أشياء قابلة للاستخدام والانتفاع " (هوركهايمر وأدورنو،2006،283) فالتعبير عن الجسد وعن الحب يحيل مباشرة إلى الجنس" ذلك أن الجنس يمثل الجسد في اكتماله" (Horkheimer et Adorno,1974,p59)

أصبحت وظيفة الفلسفة في الفترة المعاصرة خدمة العلم بل خدمة الطبقة الرأسمالية المسيرة لهذا العلم فأصبح تايلور ممثلا للعقل العلمي الذي يعدل طرق الإنتاج والعمل على جمع الطاقة العقلية المبعثرة التي

ينبغي أن تخدم العمل باحثا عن الحوافز المادية التي تسلب قدرة العامل وتستغله . إن فكرة السيطرة عند الشعوب الرأسمالية أصبحت تفرض نفسها دون أن تجد لذاتها تطبيقا في الفكر فقد تجاوزته وأصبحت تشكل الكل الذي تذوب فيه كل الأفكار.

فلا مجال للتغييرو لا يمكن أن تكون الدعاية وسيلة للتغيير، فهي تقوم على اللغة التي خضعت للآلة وكل مرمى للتغيير إنما يعتبر مجرد عبث، فاللغة آلةو المخاطب شيء لا يستجيب، فكل دعوة للتغيير تزيد من غضب المجتمع الذي تتلاعب به، فهي لا تقدم إلا النقيض (الحرية، المساواة ...) وبهذا فكل دعاية هي إعلان للعداء على البشرية .

يمثل هذا الكتاب إذن نقدا لحضارة التنوير التي أصبحت تهدد حياة الإنسان وقيمه، نقدا للمجتمع البورجوازي الذي وضع آليات للسيطرة، وللعامل الذي دخل في لعبة الصناعة الثقافية التي أصبحت تتحكم فيه عن طريق وسائل السينما والراديو والصحافة المكتوبة، فالصناعة الثقافية لا تسعى إلى تحرير الفرد وا ٍنما إلى توحيد أنماط حياته والسيطرة على طموحاته ورغباته كلها، و هذا يسير وفق منطق اقتصادي مخطط.

إن الطبقة التي عول عليها كارل ماركس في التغيير وفي نبذ السيطرة والاستغلال قد امتُصت روحها الثورية وأضحت جسدا بلا روح تسيرها الآلة ويبهرها التطور ويسكنها حب التملك المادي فكيف لها أن تغير، فيأس أدورنو من إمكانية التغيير المادي والاجتماعي والأخلاقي والقيمي خاصة بانتشار الأنظمة الشمولية ووصول هتلر إلى الحكم والتفاف الألمان حوله والجرائم التي مارسها على اليهود خاصة في المحرقة والدمار الذي لحق العالم خاصة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية نقله من التفاؤل إلى التشاؤم من إمكانية التغيير المادي .

لقد رأى أدورنو أن كل شيء قد خضع للسيطرة العنكبوتية، وما من مهرب إلا إلى الفن الذي رأى فيه منفذا لفضح الحداثة بأبعادها المختلفة، غير أنه ليس الفن الذي يعبر عن الجمال، فكيف نتحدث عن الجمال الذي يعكس التكامل والانسجام والتصالح في عالم قبيح ومتناقض، فغرض الفن هو النقد وليس تحقيق المتعة التي تخدر الشعوب، فهنا لا يجب الحديث عن الجمال بل عن القبح كتجربة جمالية تعكس وتفضح التناقضات والفزع والرعب الذي يعيشه الإنسان في عصر الحداثة.

قائمة المراجع:

أولا – المراجع بالغة العربية:

– إيمانويل كانط، (2005)، ما هي الأنوار؟، تر: محمود بن جماعة، دار محمد علي للنشر، تونس.

– بوتومور توم،(2004)، مدرسة فرانكفورت، تر: سعد هجرس، دار أويا، طرابلس، ليبيا، ط2.

– بومنير كمال،(2010)،النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهايمر إلى أكسل هونيث، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1.

– بومنير كمال،(2012)قراءات في الفكر النقدي لمدرسة فرانكفورت، الجزائر،مؤسسة كنوز الحكمة.

– محمد سبيلا،(2000)، الحداثة وما بعد الحداثة، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر.

– هوركهايم ماكس وأدورنو تيودور،(2006)،جدل التنوير، ترجورج كتورة، طر ابلس ،دار أويا للطباعةو النشر.

أولا – المراجع بالغة الأجنبية:

– Max Horkheimer et Theodor w .Adorno, 1974 La Dialectique de la raison, trad: Eliane koufholz, Gallimard, , p59